حديث القرآن عن أشخاص كأبي لهب

سؤال: ما الحكمة من حديث القرآن عن أمثال أبي لهب؟ هل هذا يوافق فصاحة القرآن وبلاغته؟

الجواب: كان أبو لهب -واسمه عبد العزّى- رجلًا عنيدًا شقيًّا حُرِم النور النبويّ رغم نشأته بجواره، ونزلت فيه سورةٌ، يقول الحق ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۞ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۞ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ (سُورَةُ الْمَسَدِ: ١١١/١-٥).

أجل، لطالما وظَّف أبو لهب الإرادة التي منحها الله له في الشر، فألقى الأشواك في طريق رسول الله ﷺ، وأضرم النار في طريقه إلى الكعبة، والجزاء من جنس العمل، ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾، وهذه إشارة لطيفة، فالقرآن الكريم يذكر هذا المكابر بلقبه ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ أي "أبي النار".

لقد وقف هذا الرجل في وجه الدعوة الإسلامية وحاول صدها عن إعلاء كلمة التوحيد ونشرها، وحاك المكايد والمؤامرات طول حياته ضد الإسلام والمسلمين، فخاب سعيه، وباءت محاولاته كلها بالفشل، ما أغنى عنه ماله الذي آل إليه من ثروة بني أمية ولا ثراء زوجته أم جميل ولا ما اكتسبه هو، وما كان لأولاده الذين يفخر بهم يدٌ في نجاته.

تخلّف عن المشركين في معركة بدر لعُذْر، ولما بلغه نبأ انتصار المسلمين انهارت أعصابه، وجاء النذير ليحدِّث أهل مكة بحدَثٍ لم يتوقّعوه، يحدثهم عن جنود بعمائم صفراء يحاربون مع المسلمين،

وكان بينهم صحابي يُدعَى أبا رافع يخفي إسلامه، فلما سمع هذا الكلام لم يتمالك نفسه وقال: ''هؤلاء والله هم الملائكة''، فجُنّ جنون أبي لهب وانقضّ عليه ليطأه بقدمه.

كان أبو رافع مملوكا للعباس بن عبد المطلب ﷺ، فهرولت إليه زوجة العباس السيدة أم الفضل، وانهالت على رأس أبي لهب بِعَصًا في يدها قائلة: ''أتضرب عبدًا غاب عنه سيده؟'' فلم يردّ أبو لهب على زوجة أخيه، واتَّجه إلى بيته ويداه ملطختان بالدماء، وما خرج منه بعدئذ، وبهذه الضربة أو بشيء آخر أصيب أبو لهب بمرضٍ عُضال يُسمَّى ''عدسة''، ويُعد هذا المرض حينئذ أخطر من مرض الطاعون، فلم ينفعه ماله ولا ولده، وظل يتلوى ويشتكي سبعة أيام، ثم هلك وليس بجواره أحد، لم يجرؤ أحد على الدخول عليه لحمل جثته ودفنها، وأخيرًا استحيوا فاستأجروا مِن أعراب الصحراء مَن يحمل جثته المتعفنة إلى حفرة، ثم أهالوا عليها التراب.

ما أشدَّ قرابته من سيدنا رسول الله ﷺ ! ومع ذلك لم يوفَّق ليستنير بنوره، بل أصبح ألدَّ أعدائه؛ فوجب له العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وها هو ذا قد نال عقابه في الدنيا، وهو على موعد مع عقاب الآخرة.

كانت أم جميل زوجة أبي لهب ثريةً نسيبةً من بني أمية، شديدة العداء لرسول الله ﷺ ، وكأن عداوتها له تروي ظمأها وتُمتِّعها، ولسوف تلقى في الآخرة جزاء ما فعلت في الدنيا.

كان أبو لهب رجلًا عنيدًا، قال عنه أبو جهل: ''إياكم أن تغضبوه، فإنه إذا مضى لأمر لا يستطيع أحدٌ ثَنْيَه عنه''، وهو محقّ في هذا. استخدم عناده لمواجهة رسول الله ﷺ، وأسرف في عداوته له، فتكاتف مع زوجته وعظّما الأصنام التي في الكعبة، ولم يجتهدا ولو مرة واحدة في التعرف على شخصية رسول الله ﷺ الذي تربَّى بينهما، وهو إنسانٌ فهرستٌ

عنده مفتاح حقائق الكون كله، بل ما شعرا بالحاجة إلى الاستفادة من تلك الشخصية العظيمة، رحمةِ الله للعالمين صلوات ربي وسلامه عليه.

كان أبو لهب عِلاوة على ذلك يسيء إلى رسول الله ﷺ، ولو طال عمره فعاش إلى يوم القيامة لما تغيرت طويّته ولفعل ما كان يفعله؛ فهو ممن ناصر أبا جهل وأمثاله في الحصار الاقتصادي على المسلمين، حصار دام نحو ثلاث سنوات، قضاها الرسول ﷺ والمسلمون في صراع مع الموت، وأَوْدَتْ بحياة كثير من الأطفال والشيوخ، كلّ ذلك ولم تتحرك ذرة من الشفقة أو الرحمة في قلب أبي لهب؛ فهو إنسان بلا قلب أو ضمير.

في الواقع شفّ الهمُّ والحزن أمَّنا خديجة ﵂ يومئذ، فلم تحتمل ما نزل بالمؤمنين من الظلم، فتوفيت حينها وكأنَّها أرادت أن تخلّد ذكرى عام الحزن، ثم توفي أبو طالب في العام نفسه، لكن وا أسفاه لم يستطع أن يدرك ركب الهداية، لكنه لحبه لرسول الله ﷺ تحمّل مثل ما نزل بالمسلمين من الأذى والظلم.

وعندما أذكر أبا طالب أشعر بألم يسري في أعماق قلبي، وتفيض عيناي في معظم الأحيان وأبكي، يا لَه من حدَثٍ مؤسف أن يرحل مَن نصر النبي ﷺ ورعاه دون أن يدرك ركب الهداية! وسيدنا أبو بكر ﵁ أيضًا بكى من أجل ذلك:

عن ابن عمر ﵄ قال: جَاءَ أَبُو بَكْرٍ ﵁ بِأَبِي قُحَافَةَ يَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْخًا أَعْمَى يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**أَلَا تَرَكْتَ الشَّيْخَ حَتَّى نَأْتِيَهُ؟**" قَالَ: "أَرَدْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ يَأْجُرَهُ اللهُ". فَلَمَّا مَدَّ أَبُو قُحَافَةَ يَدَهُ يُبَايِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَكَى أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**مَا يُبْكِيكَ؟**" قَالَ: "لَأَنْ تَكُونَ يَدُ عَمِّكَ مَكَانَ يَدِهِ وَيُسْلِمَ وَيُقِرَّ اللهُ عَيْنَكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ"[٦٦].

(٦٦) المعجم الكبير للطبراني: ٩/٤٠؛ الإصابة لابن حجر: ٧/١٩٩.

ولا ينبغي أن نسيء الأدب وندّعي أننا أرحم من الرحمة الإلهية، لكنني لا أستطيع أن أتمالك قلبي، ولَكَم وددتُ أن تكون تسعة أعشار حسناتي لأبي طالب ولا يبقى لي منها إلا واحدة وينجو هو، ربما أكون قد تجاوزت حدي في هذا ولكن كما ذكرت من قبل إنني لا أتمالك قلبي؛ فهذا الرجل حمى سيدي رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه سنين عددًا، ونصره ورعاه، وتحمل الأذى والمعاناة من أجله؛ إلا أننا لا نستطيع أن نقول شيئًا أكثر من ذلك، وليس لأحد أن يقول شيئًا؛ فأبو طالب لم يعتنق الإسلام، فبات هذا مانعًا يحول دون شفاعة الرسول ﷺ له في الآخرة.

وبينما كان عمه أبو طالب يذود عنه ﷺ ويدفع عنه أذى المشركين، كان عمه الآخر أبو لهب يرى أنه ﷺ يستحق أن تنزل به -حاشا وكلا- صنوف الأذى والعنت كلها.

كان رسول الله ﷺ يتردد على القبائل واحدة تلو الأخرى يحدثهم عن الدين الحق ويدعوهم إلى الإسلام، وكان وراءه من يتعقبه كما الظل، أحمر الشعر والوجه، يكذّبه على الدوام، ومن هو هذا الرجل سوى أبي لهب.

وبينما الأباعد من القبائل والعشائر يأتونه ﷺ من أقصى الأرض ليبايعوه ويسعون لعقد قرابات وصِلات معه كان أبو لهب يفعل العكس، يبتعد عنه، وكأن الجَفاء مهمته ووظيفته، كيف كان هذا المكابر أعمى، لقد بلغ به العمى أنه لم ير الشمس ومنبع النور الذي تفجر بين عينيه وبلغ عنان السماء.

إذًا أما كان هذا الرجل المعاند حقيقًا وجديرًا بوصف القرآن له: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (سُورَةُ الْمَسَدِ: ١/١١١)، أليس ترك القرآن لبيان صفته تضييعًا لحقوق مليارات المؤمنين؟ نعم، لولا ذلك لما أمكننا أن نوفق بينه وبين الأسلوب القرآني المفعم بالحكمة والمصلحة؟

ثانيًا: أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ آيات بينات تتحدث عن كثيرين أساؤوا للإسلام والمسلمين، ومنهم الوليد بن المغيرة، قال عنه القرآن: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۞ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ: ٧٤/١٨-١٩). والوليد هو والد سيدنا خالد بن الوليد ﷺ، وهو من ألدّ أعداء رسول الله ﷺ، كان ديدنه إلصاق التُّهَم والافتراءات برسول الله ﷺ، فوصفه بالشاعر مرّة، وبالكاهن مرة، وبالساحر مرة أخرى، ثم قرر بعد عِراك وحراك أن القرآن ما هو إلا سحر يؤثر، ووصف رسول الله بالساحر، فوبّخه القرآن على قراره هذا وأنكر عليه فعلته وقراره فقال: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۞ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ: ٧٤/١٨-١٩).

ومضى القرآن في زجره ووعيده لكُفّار آخرين، فلو ترك ذكر أبي لهب فهل يا ترى يتناسب هذا ومنهج القرآن الكريم في الإحاطة بالقضية بكل جوانبها؟ فلو كان ذلك لخرج علينا من يقول: "إن القرآن الكريم ستر أبا لهب -وهو الذي عادى رسول الله أشد العداء- وترك الحديث عنه لقرابته من رسول الله ﷺ". فلم يفسح القرآن الكريم المجال لذلك، وألحق أبا لهب بقائمة أمثاله من المشركين.

ثالثًا: نزلت هذه السورة في مكة، وهلك أبو لهب في العهد المدني بعد غزوة بدر، فهذا يعني أن هذا إخبار بالغيب أن أبا لهب وامرأته سيموتان كافرين، وقد وقع ما ذكره القرآن عنهما حقًّا. كما أشار النبي ﷺ لأصحابه إلى مصارع رؤساء المشركين في بدر، فتردّى كل واحد منهم في المكان الذي أشار إليه رسول الله ﷺ، فقوّى هذا الخبر الغيبيّ عزيمةَ المؤمنين وشحذ طاقتهم المعنوية. وفي هذه الأخبار إنذار وتنبيه للمؤمنين، وإعلامهم بوقوع كل ما وعد به القرآن، وهذا يعني أن وعد الله للمؤمنين بالنصر سيتحقق لا محالة، ومثل هذه التأييدات أمور لا يُستهان بها في عهد كان الجميع

فيه ينابذهم العداء، بل على العكس لقد كانت ضروريةً ولازمةً بالنظر إلى النتيجة التي تمخضت عنها.

أحيانًا تكون مصيبةٌ صغيرة سببًا في تيقظ الإنسان وأَوْبَتِه إلى رشده فيفوز بأشياء في حياته المعنوية لو انكشف الحجاب عنها لتمنى الناس جميعًا من صميم قلوبهم أن تنزل بهم تلك المصيبة، وما يناله المرء بعدُ يخفّف من حدة المصيبة ويهوّن من شأنها. فلو لم يحدثنا القرآن عن عاقبة مثل هؤلاء وخسارتهم المحققة فهذا لن يؤثر في النتيجة شيئًا. وها قد حدث ما حدث، وسينال هؤلاء عاقبتهم المقدرة لهم.

نعم، تحدث القرآن الكريم عن شخصين وما ينتظرهما من عاقبة وخيمة، فهذا وإن كان يبدو للوهلة الأولى كأنه أسلوب مُهين، غير أن له بلا ريب حِكمًا أخرى تحل محل هذا الإحساس الذي يرد إلينا بدايةً، منها إثارة مشاعر ملايين من الناس للتعرُّف على ذاتيتهم، وأقلها أن يعتبر الناس ويحذروا في تصرفاتهم حتى لا يصيبهم ما أصاب المذكورين. وبهذا ندرك كم هو مهمّ أن يتحدث القرآن الكريم عن أبي لهب وأمثاله، فهذا يرجع بفائدة كبيرة على المؤمنين نفسيًا وتربويًا.

رابعًا: علاوةً على ما ذكرناه نقول أخيرًا: كما كان هذا التأثير النفسي سببًا في يقظة طائفة المؤمنين كان كذلك سببًا في سريان الريبة والشك إلى قلوب المشركين تجاه عقيدتهم. فهم لما تحوّل كفرهم المطلق إلى شك وريبة تيسر أمر سلوكهم طريق النور، فبتضييق الشكوك والشُّبَه وجد تصديقُهم المضمر في جوانحهم منافذَ يلج منها إلى العقل والقلب، وما مضت مدة حتى بدأت تظهر النتائج الإيجابية لهذا الأمر.

ثم خلع كثيرون عباءة الكفر ولبسوا حلة الإيمان، وانطلقوا في سبيل الدعوة والإرشاد، وهذا المكسب ليس بهيّن للإيمان والإنسانية.

وإحراز مثل هذه النتائج العظيمة بالحديث عن عواقب بعض الأشخاص أسلوب معجز لا يكون إلا للقرآن، فهو مظهر من مظاهر بيانه الحكيم، بل إنه لم يتسنّ لأي كلام آخر أن يحقق مثل هذه النتائج المبهرة.

وهذا مثال لعمقٍ وتنوعٍ منقطعِ النظير للأسلوب القرآني، فمثله كمثل آلاف الدوائر تنداح بضربِ الماء بحجر صغير. أجل، إن هذه التموجات ما زالت تخفق لها قلوب آلاف بل ملايين من الناس حتى اليوم؛ لقد نزل القرآن الكريم بأسلوب معجز اهتدى به الملايين من خلال إخباره بموت فلان من الناس على الكفر منتهجًا تشويق الترغيب وزجر الترهيب، وهذا أيضًا موافق تمامًا لبيان القرآن وفصاحته وبلاغته، وهذا من صميم حكمته وصلاحه لحياة العباد.

العلاقة بين القدر والإرادة

سؤال: أجل الإنسان مقدَّر وقتًا وكيفًا، فما ذنب القاتل؟

الجواب: وقتُ الموت وكيفيتُه مثل كل شيء مقدَّر من قبل؛ أي ما يجري للكائنات كافّةً يأتي مثله في الإنسان ومحياه ومماته، فالوجود بطرقه المعلومة، واستمراره وفق أسس معينة، ثم الخروج من مسرح الحياة بعد حين، حقيقةٌ لا مفر منها، وهي مصير كلِّ موجود سوى الله تعالى؛ فكل شيء يولد وينمو -ودائرة القدر بسعتها وشمولها تحيط به- في خطّ معلوم، ثم ينمحي أخيرًا ويتلاشى، هذا سبيل لا يتبدل، وهو نظام ثابت سرمديّ.

إن العلوم الطبيعية -بمبادئها الراسخة وقواعدها العالمية- التي اكتشفت وتطورت في هذا الكون الهائل الذي يجري وفق نظام مدهش وتناغم يذهل العقول بدءًا من الذرات إلى المجرات، لَتدلُّنا على أنَّ لكلِّ شيء تقديرًا قبل حدوثه وقَدَرًا مقدورًا؛ فدون وجود مثل هذا التخطيط الأولي لا يمكن إيضاح النظام والتناغم الموجودين في الكون، ولا يمكن لأي علم من العلوم الطبيعية المتعلقة بهذا النظام أن يتطور. فلم تتمكن البشرية من إجراء تجارب في مختبرات فيزيائية ومن تعلّم علم التشريح وتعليمه ومن غزو الفضاء وفق قواعد معينة ثابتة إلا بفضل حركة الكون وفق قواعد هندسية رياضية دقيقة كلَّ الدقة.

ومـا كان لنـا أن نتحدث عن أي علم طبيعي فـي كون لا تناغم فيه ولا نظـام، وفـي عالم لا تخطيط فيه ولا تنسـيق وفي طبيعة تسـودها الفوضى. فما العلم سوى عدسة لقواعد موجودة ومبادئ قائمة... يكشف عنها ويبيّنها ويسـمّيها بأسـماء معينة. وليس في هذا حطّ من قدر العلوم والاكتشـافات، بـل نـودّ أن نقدرها قدرها ثم نقول: ثمة أمـور أهمّ منها لا بد أن ننتبه إليها، وهـي أن النظـام والتناغـم كقلـب ينبـض فـي صـدر الكـون، ومـا العلوم والاكتشـافات إلا كاشـفة لهمـا؛ فما أجلَّ وأعظـمَ القدرةَ التـي أقامت هذا النظام بقدر أي بتخطيط سابق عمَّ الكونَ وغدا أساسًا له؛ واليوم نجد بعض علماء الاجتماع يحاولون تنزيل القوانين السارية في الكون على المجتمعات الإنسانية، وهذه جبريّة مُفرِطة لكنها رغم ذلك تحمل معاني مهمّة، فهي تُقِرّ بتخطيط أزلي يعتمد عليه هذا النظام والتناغم الكوني الشامل.

والحقّ أنّ كل حقيقة تتعلق بالعقيدة لَهي أسمى وأعلى من أن نحتاج لها إلى تأييد خارجي أو إلى اعتراف خارجي، ولكن بينما ندعو جيلًا بائسًا تلوثت نظرته بهذه الأمور الخارجية وأزاغت الشـبهات قلبه إلى اسـترداد مكانته الصحيحة، نرى فائدة في ذكر تناقضات الذين أضلّوه ولو بإشـارة، لـذا أطنبنـا فـي هذا وخرجنا عـن الصـدد؛ وإلا فإن حركـة الكون أجمع مـن ذراتـه إلى مجراته وفق نظام وتناسـب وتناغم كبيـر تبرهن على قدرةٍ وحاكمية وسيطرة شاملة تُقدِّر وتنظِّم، فالعوالم كلها منذ نشأتها حتى يومنا هذا تحت هذه الحاكمية المطلقة تنقاد لها وتتقلب بها من حال إلى حال.

الخلق الأول للإنسان ولمخلوقات تتمتـع بالحرية والإرادة وإن كان غير مقيّد بإرادتهم كسـائر المخلوقات، إلا أن ذوي الإرادة ليسـوا كالمخلوقات الأخـرى ألبتـة فيمـا يقـع تحـت إرادتهـم؛ وبهـذا الاختلاف يغـدو للقدر "التعييـن الأزلـي" لدى الإنسـان وأمثالـه ماهية مختلفة ومسـار مختلف.

نعم، فمن يطرح هذا السؤال لم يستطع حدس هذا الفرق، وقاس الأمر على أشياء لا تملك إرادة؛ ففهم هذا الفرق بين الإنسان وسائر الموجودات سيساعد على حلّ المسألة وإنْ بشكلٍ جزئي، وحلُّ الباقي يأتي من اليقين بأن العلم الإلهي يحيط بكلّ شيء.

أجل، للإنسان حرية وإرادة وميل واختيار، وبهذا كلِّه يُنسب إليه الخير والشر، والأجر والوِزر؛ وأيًّا كان قدر إرادة الإنسان وكسبه فهي بما ينتج عنها سببٌ يُثيب به الخالقُ العظيم الجليل أو يُعاقب، حسب توجيهها إلى الشر أو إلى الخير. وما ينتج عن هذا الميل مهما كان ثقيلًا ينوء به كاهل الإنسان فهو مسؤول عن ميله هذا واختياره؛ والخالق الجليل وإن كان قد قدّر الشرّ من قبل ثم خلقه في وقته المقدّر له إلا أنه منزَّه عن أن يُنسب شيء من ذلك إليه. فمثلًا لو ربط الخالق العظيم مسألة مهمة مثل تغير المناخ بتنفسنا وقال لنا: "إن تنفستم أكثر من كذا في الدقيقة غيَّرتُ المناخ"، فإذا لم نر علاقة للسبب والنتيجة بعملية التنفس وتغير المناخ، وارتكبنا المحظور، فتغيَّر المناخ كما ذكر وأخبر، فنحن المسؤولون عن تغيره مهما عظمت العواقب وفاقت طاقتنا وعلينا وزر ما اقترفته أيدينا.

وهكذا فإذا استعمل كل فرد إرادته الجزئية واختياره بات مسؤولًا عن عمله وكسبه إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ، فإما مذنب فيُحاسب وإمّا مطيع فيكافأ؛ فمن يتسبب في موت شخص يُعدّ مذنبًا، فإن لم يُغفر له عند الله حُوسِب وعوقِب بلا ريب.

ونتوقف قليلًا عند الشق الثاني من المسألة: كيف نجمع بين العلم المطلق للخالق المحيط بكلِّ شيء تمام الإحاطة وبين الإرادة الإنسانية؟

يدخل كل شيء في علم الله بأسبابه ونتائجه جنبًا إلى جنب، ففي تلك النقطة يغدو الماضي والمستقبل، والسبب والنتيجة، والعلة والمعلول،

والأبناء والآباء، والصيف والربيع، وجهين لعملة واحدة، ووفقا لهذا العلم أيضًا يُعرف اللاحق كما السابق، والنتيجة كما السبب، والمعلول كما العلة، ويحكم عليها كلّها سواء بسواء.

وتقدير النتائج المتولّدة من تلك الأسباب وتعيُّنها لا يغلّ إرادة الإنسان؛ إذ إنَّ كلّ ما سيعمله أي فرد وأينما سيوجّه إرادته بوصفها شرطًا وسببًا عاديًّا معلومٌ مسبقًا، فالتقدير الإلهيُّ لا يستبق حرية الإنسان وإرادته؛ بل إن الله تعالى أقرّ ميول الإنسان وقدَرها قدْرَها لأنه قضى وقدّر وفقًا لها، فلو أن رجلًا عظيمًا قال لِخَدَمه: "إن تحكمتم في سعالكم فلكم مكافآت عظيمة، ومن سعل بلا داع فسيخسر ويُعاتَب"، فمعنى هذا أنَّه قد أقرّ بإرادتهم وعزّزها. وهكذا -ولله المثل الأعلى- لو أن الخالق الجليل ﷻ قال لك: إن عزمتَ على هذا الفعل خلقتُه، وبناءً على عزمك المستقبل قد حدَّدتُه لك من الآن"، فمعنى هذا أن الله تعالى قد أقرّ بإرادتك؛ وبناءً عليه فكما لا نفي للإرادة في التقدير الأول، لا إكراه لأحد على شيء يأباه.

وإنَّ القدَرَ والتقدير الأوَّل عبارة عن برامج علمية وضعها الحق تبارك وتعالى، أي إنَّ الله تعالى يعلم من قبلُ -بالنسبة لنا- السُّبلَ التي سيميل إليها الإنسان، فوضع برنامجًا وخطةً مع ما سيخلقه هو سبحانه. وصفة العلم ليس من شأنها تعيين الأحداث والأفعال، بل الذي يعيّنها ويوجدها وفق ميول الإنسان هو قدرة الله وإرادته. وعلى ذلك فالأشياء الحادثة لا تحدث لأن علم الله سبق بأنه سيكون كذا، بل إن الله يعلمها لأنها ستكون، وهذا هو معنى القدَر والتقدير الأوَّل. ويعبر علماء الكلام عن هذا بقولهم: "العلم يتبع المعلوم"[٦٧] ويتعلق به على ما هو عليه ولا يؤثّر فيه ولا يغيّره، أي إن الحادث معلوم حاله كيف سيكون، وليس للعلم تأثير

(٦٧) الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي: صفحة: ٦١؛ تفسير الرازي: ٥٧/١٩.

على وجوده هكذا، وهذا مثله مثل خططنا ومشاريعنا العلمية، فهي لا تقتضي وجود الأشياء -التي نتصورها ونخطّطها- في عالم الواقع، وهكذا القدر والتقدير الأول يمكن أن نتجوّز فنسمّيه خطة إلهية لا تستلزم وجود أيّ شيء في الواقع.

والخلاصة أن الله تعالى أحاط بكل شيء علمًا، يعلم الأسباب عِلْمَه بالنتائج، والنتائجَ علمَه بالأسباب، فهو عَلِم من يعزمون على الإحسان أو الإساءة، وقدّر ما سيخلقه هو حسب عزمهم ونيتهم، فإذا آن أوانه خلق الله ما علِمه وقدّره كما يشاء وَفقًا لعزائم المكلَّفين وميولهم؛ وعلى ذلك فتقدير كيفية الموت وموعده لا يرفع المسؤولية عن القاتل؛ فما وقع ما هو مقدّر إلا وَفق حريته وإرادته، فيُنسب الجرم إليه ويؤاخَذ عليه.

ولا بد من بحث هذه المسألة العميقة المتعلقة بالقدر بالرجوع إلى مصادرها، فما هنا لا يعدو أن يكون نقلًا للمسألة إلى العامّة في إطار مبادئ السلف الأساسية المتينة.

الهداية والضلالة

سؤال: **ورد في القرآن الكريم أن ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾** (سُورَةُ الْكَهْفِ: ١٧/١٨)؛ **وهناك أيضًا ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾** (سُورَةُ الْكَهْفِ: ٢٩/١٨) **أي إن الله قد منح الإنسان العقل والتفكر والإرادة، وهداه السبيلين أيما شاء سلك. كيف يمكننا أن نؤلّف بين كلا الأمرَين؟**

الجواب: هناك شقان في هذا السؤال: جريان الأمور هل هو حسب الإرادة الإلهية الكلية، أم حسب الإرادة الإنسانية الجزئية؟

في الآية الواردة **﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾** (سُورَةُ الْكَهْفِ: ١٧/١٨) معنى الهداية هو الرشد واتخاذ الطريق الصحيح، وهو طريق الأنبياء. أما الضلالة فهو سلوك الطريق المنحرف، والعدول عن الطريق الصحيح، والابتعاد عن الاستقامة.

إن أمْعنا النظر رأينا أن كلا منهما فِعل، فوجب إرجاعهما إلى الله تعالى لأن كل فعل -كما قلنا سابقًا- يرجع إلى الله تعالى، وليس هناك أي فعل لا يرجع إليه. أجل، فالضلالة مرجعها أنه سبحانه يضلّ من يشاء كما أن مرجع الهداية أنه يهدي من يشاء، فكلاهما منه سبحانه وتعالى.

ولكن هذا لا يعني أنه لا يوجد للعبد أي دخل وأي كسب، أو أنه يُدفع إلى الضلالة جبرًا، أو يساق إلى الهداية سوقًا، فيكون ضالًّا ومنحرفًا

في الحالة الأولى، ومهتديًا وراشدًا في الحالة الثانية. نستطيع أن نفهم هذا الأمر بشكل بسيط كما يلي:

إن كان الوصول إلى الهداية أو السقوط في الضلالة عملًا بوزن عشرة أطنان مثلا، فلا يملك الإنسان منه عشر المعشار، بل العمل كله لله تعالى.

لأذكر مثالًا ملموسًا: إن الله يهدي، وللهداية وسائلها مثل الذهاب إلى الجامع، والاستماع للنصائح، وتنوير العقل وتثقيفه... كلها من وسائل الهداية، والاستماع إلى القرآن الكريم وتدقيق معانيه والتعمّق فيها من وسائل الهداية أيضًا. والتتلمذ في مدرسة الرسول ﷺ، والاستماع إلى أقواله بقلب حاضر، والاسترشاد بمعلم وأخذ الدروس منه، والدخول إلى الجوّ الروحي للرسالة وللنبوة وفتح القلب لكل نسائم تجلياته طريق من طرق الهداية. نعم، يستطيع الإنسان المباشرة بالطرق المؤدية إلى الهداية. أجل، مع أن المجيء إلى الجامع مباشرةٌ بسيطة إلا أن الله تعالى يجعلها وسيلةً للهداية، أي إن الهداية من الله، ولكن للعبد "كسب" معيّن في طرق باب الهداية.

وقد يذهب الإنسان إلى الخمّارات والبارات، وبهذا يطرق بابًا كُتب عليه أنه سبحانه يُضلّ من يشاء ويطلب الضلالة لنفسه، فإن شاء الله أضله وإن شاء وضع أمامه عوائق تمنعه من الانحراف والضلالة. إذًا يتضح أن ما في يد الإنسان من شيء ضئيل لا يكفي ولا يستطيع أن يكون سببًا للهداية أو للضلالة.

لأضرب هذا المثل: قد تُصغي إلى القرآن الكريم وإلى المواعظ والنصائح وقد تَقرأ كتابًا علميًّا جيدًا فتحس وكأن الأنوار تشرق في قلبك، بينما يستمع شخص آخر إلى الأذان أو إلى المواعظ أو إلى المناجاة والأدعية الضارعة الخارجة من القلب فيحس بضيق ويقول "ما هذه الأصوات المنكرة؟" أي يشكو من أصوات الأذان.

إذًا فإن الله تعالى هو الذي يعطي الهداية أو الضلالة، ولكن إن سلك أحد طريق الضلالة بعناد فإن الله تعالى يخلق له ما يتبقى من ٩٩,٩٪ من العمل العائد له تمامًا كعملية الضغط على زر لتشغيل آلة ضخمة ثم يحاسب الإنسان لميله إلى الضلالة ويعاقبه أو يعفو عنه.

إرادة الإنسان ودورها في الأعمال

سؤال: لقد بيّن القرآن الكريم أن الإرادة الكلّيّة لله تعالى وحده، ومعلوم كذلك أن للإنسان إرادة جزئية، فإذا كان الأمر هكذا فهل يتبع حين يقترف الإثم إرادته الجزئية أم الإرادة الكلية لله تعالى؟

الجواب: نستطيع أن نعبر باختصار عن هذا الموضوع فنقول: إن هناك إرادة للإنسان سواءٌ أطلقنا عليها اسم "الإرادة الجزئية" أم "المشيئة الإنسانية" أم "الكسب الإنساني"؛ أما خلق الأشياء فيرجع إلى الله عز وجل سواء أعاد إلى "الإرادة الكلية" و"القدرة على الخلق" أم إلى "الإرادة التكوينية" وكلها من صفات الله تعالى. وعندما نظرنا إلى المسألة من الجانب المتعلق بالله تعالى تبدو وكأن الله تعالى يُلزِم ويجبر الحوادث أن تأخذ مجرى معيّنًا، وهكذا يدخل الجبر في المسألة؛ أما إذا تناولنا المسألة من الجانب المتعلق بالإنسان فتبدو وكأن الإنسان يعمل أعماله بنفسه، أي "كل إنسان هو خالق لأفعاله" وهذا مذهب المعتزلة.

الله خالق كل ما يحدث في الكون، وهذا هو معنى "الإرادة الكلية" الواردة في السؤال. ومعنى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ٩٦/٣٧) أي خلقكم وخلق الأعمال الصادرة منكم.

مثلًا إن قمت بصناعة سيارة أو بناء بيت فالله هو خالق هذه الأعمال،لأنك أنت وأفعالك تعودان لله تعالى. ولكن هناك ما يعود إليك في هذه الأفعال وهو "كسبك" و"مباشرتك". وهذا الكسب شرط عادي

وسبب بسيط، فيشبه تمامًا قيام شبكة كهربائية ضخمة بإنارة منطقة واسعة جدًّا بمجرد قيامك بالضغط على زر واحد. فكما لا يمكن هنا القول بأنك لم تفعل شيئًا ولم يكن لك أي دخل في الموضوع، كذلك لا يمكن القول بأن هذه الإضاءة والإنارة تعود تمامًا إليك. وهكذا الأعمال تعود تمامًا إلى الله، ولكن الله تعالى عندما خلق هذه الأعمال عدّ مباشرتك الجزئيّة هذه شرطًا عاديًّا وبنى ما سيفعله على هذه المباشرة الجزئية.

ولنفرض وجود ماكنة جاهزة للعمل، فوظيفتك تنحصر فقط في الضغط على زر واحد فيها. إن تحريك هذه الماكنة يعود إلى من أنشأها وصنعها في الحقيقة، لذا نحن نطلق على المباشرة الضئيلة العائدة للإنسان صفة ''الكسب'' أو ''الإرادة الجزئية'' ونطلق على ما يعود إلى الله تعالى صفة ''الخلق''. وهكذا يظهر أمامنا تقسيم للإرادة:

١. الإرادة الكلية

٢. الإرادة الجزئية

ومعنى الإرادة هو التوجه والمشيئة، وهذه تعود إلى الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (سُورَةُ الإِنْسَانِ: ٣٠/٧٦). يجب ألَّا يُساء فهم هذا، لأننا عندما نقول إن للعبد نسبةً صغيرةً من الإرادة تتمثل في ضغط أصبع نكون قد افترقنا عن الجبرية الصرفة. وعندما نقول إن الله هو خالق العمل نفترق عن فكر المعتزلة وعن أصحاب الفلسفة العقلانية (*Rationalism*). وهكذا لا نكون قد أشركنا أحدًا في ربوبية الله وألوهيته تعالى، ولا وضعنا له ندًّا تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا. فكما أن الله تعالى واحد أحد في ذاته، كذلك لا يُشرك في أفعاله وتصرفاته أحدًا غيره. الله هو خالق كل شيء ولكنه من أجل التكليف والامتحان ومن أجل أسرار وحكم أخرى قَبِل عزم البشر على الفعل وكسبهم

شـرطًا عاديًـا. ولكـي أُوضـح الموضـوعَ أكثر فإنـي أُورد هنا مثـالًا ذكره الأستاذ بديـع الزمان:

''إذا أخـذتَ طفـلًا عاجـزًا ضعيفًـا علـى عاتقـك، وخيّرتـه قائـلًا: إلـى أيـن تريد الذهاب، فسـآخذك إليه. وطلب الطفـل الصعود على جبلٍ عالٍ، وأنت أخذته إلى هناك، ولكن الطفل مرض أو سـقط. فلا شك أنك سـتقول له: أنت الذي طلبت! وتعاقبه، وتزيده لطمة تأديب. وهكذا -ولله المثـل الأعلى- فهو سـبحانه أحكم الحاكمين جعـل إرادة عبده الذي هو في منتهى الضعف شرطًا عاديًا لإرادته الكلية''(٦٨).

هل في وسـعك إنكار إرادة الصبي هنا؟ لا تسـتطيع، لأنه هو صاحب الطلـب. ولكنك كنت أنت الذي ذهبت بـه إلى ذلك المكان. أما المرض فلم يكن من عمل الصبي، وإنما صدر منه الطلب فقط، فهنا يجب التمييز بين من أعطى المرض وجلب الصبي إلى هناك وبين من طلب الذهاب.

نحن ننظر بهذا المعنى وبهذا المنظار إلى القدر وإلى الإرادة الإنسانية. والله تعالى المقدر لكل شيء هو الأعلم بالصواب.

(٦٨) الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي: الكلمة السادسة والعشرون، المبحث الثاني، الوجه السابع.

وضعُ من وُلد في بلدة غير إسلامية

سؤال: ماذا يكون وضع من وُلد في أحد البلدان الأجنبية يوم القيامة؟

الجواب: هذا السؤال هو أحد الأسئلة التي طرحت في السابق ولا تزال تطرح الآن، وأعتقد أنه يطرح لإثارة الجدال، أي يقولون إننا سندخل الجنة لأننا نؤمن بالله وبرسوله، ولكن أيدخل الآخرون الذين ولدوا في بلدان بعيدة عن العالم الإسلامي كباريس ولندن وموسْكو، ولم تتيسر لهم الإمكانيات التي تيسرت لنا ولم يصلهم النور الذي وصل إلينا؟ أيدخل كل هؤلاء إلى جهنم؟

مثل هذا السؤال يحمل أمرين؛ الأول: إظهار رحمة أكثر من الرحمة الإلهية. والثاني: عرض نقد خفي ضد الإسلام.

نقول أولًا إنه -خلافًا للعقيدة الشائعة- لا يصح تعميم الحكم على هؤلاء بأنهم سيذهبون جميعًا إلى جهنم، ولكن القاعدة الأصلية هي كما يأتي: إن الذين سمعوا بدعوة رسولنا ﷺ وشاهدوا النور الذي جاء به، ولكنهم أبَوا وعاندوا وسدوا آذانهم دون هذه الدعوة.. مثل هؤلاء سيذهبون إلى جهنم دون شك. ومن الحماقة هنا التظاهر برحمة أكثر من الرحمة الإلهية. ولا ينطبق هذا على الذين يعيشون في البلدان الأجنبية، بل ينطبق هذا الأمر على الذين يعيشون في بلادنا، فمن لم يتبع النور الذي أتى به الرسول ﷺ بل أدار ظهره له وخالفه فإن مصيره أيضًا إلى جهنم وعاقبته هي الخسران المبين. وإننا لنرجو الرحمة الإلهية

التي وسعت كل شيء أن تجعلنا من أتباعه ﷺ ومن السائرين خلفه في هذا العصر الذي كثر فيه الجاحدون.

لقد تناول هذا الموضوع علماء الكلام الذين صرفوا جهودهم لإيضاح ما جاء في القرآن وفي السنة النبوية إيضاحًا عقليًّا ومنطقيًّا وفلسفيًّا وتأييدِه وتقويتِه عن طريق الفكر، وشرحوه مفصّلًا. أجل، فهل سيكون مصير الذين لم يجدوا فرصة الاستجابة للرسول ﷺ، مثل مصير الذين سمعوا به ورفضوه وعاندوه؟ أم أن هناك فرقًا بين هاتين الفئتين؟

ويخطر على البال أيضًا أسئلة عديدة: فهل تستحق مثل هذه الأسئلة اهتمامًا منا بجانب المسائل والمشكلات المهمة التي نعانيها الآن؟ وهل العثور على أجوبة لمثل هذه الأسئلة سيفيدنا في حياتنا الأخروية؟ وهل هناك فائدة حقيقية في حياتنا العملية؟ ولماذا صرف أئمة المذاهب جهودًا كبيرةً حول هذه المسائل وهذه الأسئلة؟

والآن لنتناول قبل كل شيء وجهات نظر علماء العقائد حول هذا الموضوع الذي يثير معه كثيرًا من الأسئلة:

يقول الأشاعرة بأن من عاش ولم يسمع شيئًا عن الله تعالى ولم يبلغه شيء عنه فإنه يُلحق بأهل "الفترة" أي يُعدّ من أهل النجاة أينما عاش وفي أي زمن عاش وكيفما عاش. فإن لم تبلغوا دعوة الرسول ﷺ وتحملوها إلى أقاصي الأرض المظلمة، فإن الأشاعرة يقولون: إن أهل هذه البلاد الذين يعيشون في ظلام سيكونون من أهل النجاة وإن الله تعالى سيدخلهم جنته.

أما الماتريدية فنراهم في خط موازٍ للمعتزلة حيث يقولون: إن الإنسان إن توصل بفكره وعقله إلى الله تعالى -أيًّا كان الاسم الذي أطلقه عليه- سينجو يوم القيامة. ولكن إن لم يصل بعقله إلى الله تعالى ولم يصدّق بوجوده فلن يكون من أهل النجاة.

ومع أن هاتين النظرتين ليستا متطابقتين، إلا أن الفرق بينهما قليل لأن الماتريدية يرون أن الإنسان حيثما كان سواء في الجبل أو في السهل أو في الصحراء يرى حواليه آياتٍ ودلائلَ عديدةً تشير إلى الخالق اعتبارًا من طلوع الشمس والقمر وغروبهما، ومن لَمَعان النجوم في السماء، والأرض المزينة بأنواع الزينة، والجبال وهيبتها، والسهول والوديان التي تجري فيها جداول المياه، ومنظر الأشجار والأعشاب، وبسمة الأزهار والورود... كل هذه المناظر آيات تشير وتدل على الخالق تعالى بلسان بليغ. وكل من به مسكة من عقل سيرى وراء مظاهر هذا الجمال يدًا خفيةً، لذا سيتوصل إلى أنه لا بد من وجود خالق. ومثل هذا الشخص يكون من أهل النجاة وإن لم يعرف صفات الله تعالى ورسله وأنبياءه.

لذا ليس من الصحيح أن نبادر بالقول دون تثبت حال الناس الذين يعيشون في البلاد الأخرى "إنهم لم يؤمنوا، لذا فهم من أصحاب النار". ذلك لأن وجهات نظر أئمة المذاهب لا تسمح بهذا، وهي تدعونا إلى السكوت والصمت في أقل تقدير.

أما الإمام الأشعري فينطلق في وجهة نظره من الآية: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٥/١٧) وآيات أخرى مثلها. أجل، فالقرآن يقول بأن الله ﷻ لا يعذّب أمة لم ترَ رسولًا، إذًا فالذين لم يروا نبيًّا ولم يسمعوا به، لا يُعذبون(٦٩).

ويرى الإمام الماتريدي أن العقل يستطيع التمييز بين الحسن والقبيح وهو مقياس مهم في هذا الأمر. ويستطيع الإنسان أن يقول -اعتمادًا على عقله- إن هذا حسن وهذا قبيح. صحيح أن الزعم بأن العقل يستطيع الوصول إلى حدس وإدراك كل شيء زعم باطل، ولهذا أمَر الله

(٦٩) انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري: ص: ١٢٧؛ أصول فخر الإسلام البزدوي: ٤/١٣٥٠-١٣٥١؛ التبصير في الدين للإسفراييني: ص: ١٧٠-١٧١.

تعالى بالخير ونَهَى عن الشر، ولم يدع هذا الأمر المهم إلى العقل الذي يحتمل سَهْوه وقصوره، بل نظم هذا الأمر بالوحي وبينه ووضحه بوساطة أنبيائه ورسله ولم يدع أي شيء مبهَمًا أو غامضًا.

إن العقل -حسب الماتريدية- يستطيع حدس قبح الزنا، لأنه يؤدي إلى اختلاط الأنساب وضياعها. فمن يرث من؟ فإذا لم تحافِظ المرأة على عفّتها، وإذا كان أطفالها مجهولي النسب فمن يأخذ ميراث من؟ إذًا يستطيع العقل الوصول إلى أن الزنا قبيح. كذلك يستطيع العقل التوصل إلى أن السرقة شيء قبيح أيضًا، لأن من القبح قيام شخص بأخذ مال شخص تعب وشقي في سبيل الحصول عليه. ويستطيع العقل حدس قبح الخمر والمسكرات، لأنها تزيل العقل وتسبب نتائج ضارةً سلبيةً في النسل وتؤدي إلى أمراض وعلل مختلفة. ويمكن ذكر الشيء نفسه بالنسبة لأمور أخرى كذلك.

والأمر نفسه وارد بالنسبة للأشياء الحسنة. فالعدالة حسنة والإحسان إلى الآخرين ومساعدتهم شيء حسن وجميل، ويمكن للعقل أن يحدس هذه الأمور. والقرآن والسنة النبوية أوضحتْ هذه الأمور وأمرت بها وبينتها وأنقذتنا من الزَّلَل والخطأ في مثل هذه المواضيع.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الإيمان بالله فهو شيء حسن، لأن الإنسان يصل به إلى الاطمئنان النفسي فيعيش حياته في سعادة ويذوق جزءًا من سعادة الآخرة وهو في الدنيا. كما يمكن حدس الطريق الموصل إلى الإيمان بالعقل والمنطق، لذا نرى أن بدَويًّا في الصحراء أحس بذلك، وعندما حضر إلى مجلس النبي ﷺ وسُئل كيف عرف ربَّه قال: "البعرة تدل على البعير والروث يدل على الحمير وآثار الأقدام تدل على المسير... فسماء ذات أبراج وبحار ذات أمواج أما يدل على العليم القدير؟!"(٧٠).

(٧٠) نفح الطيب لأحمد بن محمد المقري التلمساني: ٢٨٩/٥.

فحتى بدويّ بسيط وراعي إبل استطاع بعقله التوصل إلى وجود ذاتٍ يملك جميع الأشياء في قبضته ويعلم كل شيء، فلا يمكن إذًا إهمالُ دور العقل في موضوع الإيمان إهمالًا كليًّا.

وانطلاقًا من هذه النقطة قال الماتريدي: إن الإنسان يستطيع بعقله الوصول إلى ربه. والدليل على هذا هو أن الكثيرين أحسّوا بهذا في العهد الجاهلي وفي عهد "الفترة". فمِن هؤلاء "ورقة بن نَوفل" الذي كان ابن عم والدتنا خديجة الكبرى ﵂. وحينما شاهد رسول الله ﷺ جبرائيل ﵇ على صورته الحقيقية وهو يسدّ المشرق والمغرب جفل وأسرع إلى أمّنا خديجة يخبرها بما رأى، فذهبت به أمّنا إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان قد ترك عبادة الأوثان والأصنام، لأنه أحس بأنها لا تضر ولا تنفع وتوصّل بعقله إلى الله تعالى.

ومن هؤلاء "زيد بن عمرو بن نفيل" عمّ عمر بن الخطاب ﵁. كان زيد قد ترك عبادة الأوثان وفارق دينهم، ويروى عنه بأنه قال في عبادة الأوثان: "فَلَا العُزَّى أَدِينُ وَلَا ابْنَتَيْهَا وَلَا صَنَمَيْ بَنِي عَمْرٍو أَزُورُ"[٧١]. لم يكن النبي ﷺ قد أعلن نبوته بعد، ولكن زيد بن عمرو كان يحدس قرب مجيء نبي جديد ودين جديد. عن عامر بن ربيعة قال: "سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول: أنا أنتظر نبيًّا من ولد إسماعيل ثم من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه وأنا أُومن به وأصدّقه وأشهد أنه نبيّ... فإن طالتْ بك مدة فرأيته فأقرئه مني السلام"[٧٢]. وكان يؤمن بخالق لا يستطيع معرفته، وكان يقول: "اللهم إني لو أعلم أحبّ الوجوه إليك عبدتُك به، ولكني لا أعلم"[٧٣].

(٧١) البداية والنهاية لابن كثير: ٢/٢٤٢.

(٧٢) البداية والنهاية لابن كثير: ٢/٢٤٠.

(٧٣) البداية والنهاية لابن كثير: ٢/٢٣٧.

فحتى بمثل هذا التفكير البسيط كان باستطاعة الجميع تقريبًا التوصل إلى وجود خالق مالك للسموات والأرض. كان زيد بن عمرو وورقة ابن نوفل قد فتحا كوة صغيرة في قلوب أقربائهما، لذا نرى أن سيد الأنبياء عندما بدأ بدعوته اختار من هؤلاء أفضل المؤيدين والمؤمنين به، وأحال العقلَ والمنطق إلى الوحي لينطلق نحو آفاق لا يحدها البصر.

والآن لنعد ونكرر السؤال من جديد: أيذهب إلى جهنم حالًا كل من ولد خارج الديار الإسلامية؟ أجل، من سمع بالقرآن وشاهد نبوة رسولنا ﷺ ولم يحس بحاجة للبحث عن صحة هذه النبوة ولم يبذل أي جهد في هذا السبيل مصيره هو النار. ولكن الذين لم تتيسر لهم حتى مثل هذه الفرصة ونشؤوا في الظلام وبقوا في الظلام طوال حياتهم، فإننا نأمل أن يستفيدوا من رحمة الله الواسعة فلا يلاموا ولا يؤاخَذوا بشيء.

واسمحوا لي بتناول جانب آخر من المسألة لكونه متعلقًا بنا. لقد قام المسلمون الأوائل الذين مثّلوا الإسلام خير تمثيل بتبليغ رسالة رسولنا ﷺ إلى جميع أنحاء الأرض وإلى أقاصي العالم، فأضاؤوا القلوب بنور الإسلام. وعندما نقرأ الآن مناقبهم نشعر بالروح العالية التي كانوا يتحلون بها وهم ينقلون رسالة النبوة إلى العالم أجمع. ولم يكن من المتوقع بقاء الإنسانية في حالة تفرج ولا مبالاة، فهؤلاء الأبطال الذين لم يكونوا يخشون أحدًا استطاعوا فتح قلوب الناس جميعًا، لقد صاحوا صيحةً مدويةً بحيث لم يبق هناك في أرجاء العالم من لم يسمع هذه الصيحة.

أجل، لقد مثلوا الإسلام أفضل تمثيل وأناروا العالم بنور الإسلام فلم تبق هناك بقعة مظلمة لم يصلها هذا النور. ثم إن الإنسان ليذهل من سرعة أدائهم لهذه المهمة، ومن سرعة حركتهم ومن مستواهم الرفيع في تمثيل الإسلام وتمثيل رسالة القرآن التي نشروها من مضيق جبل طارق إلى بحيرة آرال، ومن الأناضول إلى سد الصين.

أجل، لقد وصل الإسلام في عهد عثمان بن عفان ﷺ إلى الصين، وفي عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ استطاع القائد عقبة بن نافع الوصول حتى برج هرقل، ودخل البرابرة جميعًا تحت ظل الإسلام وإمرته. لقد تم هذا في ظرف ثلاثين سنةً تقريبًا. ففي ظرف هذه السنوات الثلاثين أضاؤوا بنور الإسلام أنحاء العالم جميعًا، لأنهم كانوا يمثلون الإسلام أفضل تمثيل، لذا كسبوا قلوب جميع الشعوب إلى درجة أن النصارى واليهود كانوا يفضلونهم على أبناء دينهم.

وعندما ذهب عمر بن الخطاب ﷺ إلى مدينة القدس وذهب أبو عبيدة بن الجراح ﷺ إلى الشام استُقبلا بكل مودة إلى درجة أن المسلمين عندما اضطروا للانسحاب من مدينة دمشق لجأ النصارى ورهبانهم إلى الكنائس داعين الله ﷻ برجوع المسلمين إليهم، وقالوا للمسلمين: ''ندعو الله أن ترجعوا إلينا، نحن راضون بأداء الجزية والبقاء في حمايتكم''. وبسبب هذه المحبة التي حظي بها المسلمون بين الشعوب بدأت أفواج الناس بالإقبال على الإسلام والدخول فيه؛ فكل مسلم كان بمثابة عمر بن الخطاب ﷺ، لذا فلم يكن من الممكن ألا تقبل الجماهير على الإسلام مثل هذا الإقبال. كان هؤلاء الأبطال رهبانًا بالليل فرسانًا بالنهار. لقد فتحوا القلوب أولًا حتى اعتقد الناس أن المسلمين سيفتحون العالم كله في مستقبل قريب.

أما الآن فنحن عاجزون عن فرض إرادتنا على جزيرة صغيرة[٧٤] ولا نستطيع تأمين سيادة الأمن في المناطق التي نحكمها. بينما كان المسلمون الأوائل مثال الدراية والكياسة والأمن، وكانت مفاتيح القلاع والمدن تُسلَّم لهم ويُدعون لكي يكونوا رؤساء وحُكّامًا فيها لا لاستلام المفاتيح الرمزية والمواطنة الرمزية.

(٧٤) المقصود هو جزيرة قبرص. (المترجم)

عندما فتح المسلمون فلسطين وسوريا الحالية طلب القادة مفاتيح بيت المقدس فرفض رئيس الأساقفة قائلًا: "إننا نعرف أوصاف من يحق له تسلم هذه المفاتيح وشمائله ولن نعطيها لأحد سواه..." فتوجه عمر ﷺ إلى بيت المقدس مع خادمه. لم يكن أحد يدري كيف سيأتي، ولكنه كان يأتي بالطريقة التي يعرفها ذلك الأسقف.. استعار من بيت المال بعيرًا للسفر... لم تكن آنذاك سيارة، ولكن كان من الممكن أن يأخذ الخليفة جوادًا للسفر، ولكنه لم يفعل وفضّل أن يتناوب هو وخادمه ذلك البعير طوال السفر.

عندما اقتربا من بيت المقدس كان قادة الجيش الإسلامي يتمنون أن يكون دور الركوب للخليفة بعد اجتياز نهر الأردن، لأنهم كانوا يعتقدون أن الشعب الذي تعود على مظاهر الفخامة والزينة سيعيب حتمًا منظر رئيس الدولة وهو يجر البعير الذي يركبه خادمه وقد رفع أطراف ثيابه حتى ركبتيه بعد اجتياز النهر.. ولكن العيب في نظر عمر بن الخطاب ﷺ كان في عمل شيء غير عادل، لذا كان يحاول الابتعاد عن اقتراف شيء كهذا. وقضى القدَر الإلهي بأن تكون قيادة البعير وإمساك زمامه عند اجتياز النهر كان من نصيب الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ. نزل عمر عن البعير وركب الخادم وأمسك عمر بزمام البعير يقود ويجتاز النهر. كانت ملابسه قد تمزقت في مواضع عديدة نتيجة احتكاكها بظهر البعير. جلس عمر وبدأ يرتق ملابسه... كان فيها أربع عشرة رقعة... عفوًا المفروض أن نقول كان فيها أربعة عشر وسامًا. قال رئيس الأساقفة الذي شاهد وضع عمر ﷺ: "أجل، هذا هو الرجل الذي وردت صفاته في كتبنا"، ثم قال: "لن نعطي مفاتيحنا إلا لهذا الرجل".

وصار تسليم مفاتيح بيت المقدس وتسليم المسجد الأقصى للمسلمين وسيلةً لإقبال الناس على الإسلام أفواجًا أفواجًا. لم تكن غايتي هي إثارة مشاعركم بعرض مناقب عملاق الإسلام عمر ﷺ بل التساؤل هل نستطيع اليوم تمثيل الإسلام بالمستوى السامي اللائق به؟ لقد فتحوا قسمًا كبيرًا من إفريقيا وطشقند وسمرقند وبخارى في ظرف ٢٥-٣٠ سنة؛ ثم تشرفت الدنيا بظهور البخاري ومسلم والترمذي وابن سينا والفارابي والبيروني وغيرهم؛ وامتد حكمهم إلى القوقاز والعراق وإيران... وترددت أصداء "لا إله إلا الله محمد رسول الله" في أرجاء المعمورة، فسمع الجميع رسالة الإسلام.

أما الآن فإننا لا نستطيع الزعم بأننا نبلّغ رسالة الإسلام إلى شعوبنا دع عنك تبليغها للشعوب وللأقطار الأخرى. ونحن نحاول دعوة الآخرين من الذين يستمعون إلينا إلى الإيمان وإقناعهم، ولكنهم لا يؤمنون. فكأن كلماتنا تصطدم بجدران من الجليد، ثم ترتد وتنعكس على وجوهنا بكل برودة... نحاول أن نبلّغ ولكننا لا نستطيع النفوذ إلى أرواحهم. ولا نقول هذا إنكارًا للنعم الإلهية التي لا تُعدّ ولا تحصى.. لا نقول هذا، بل لا نستطيع قول هذا، وإنما نقول هذا للمقارنة بين الصحابة الكرام وبيننا لإيضاح هذا الفرق الشاسع.

مِن هؤلاء الذين فتحوا أقطار الأرض وكانوا كالنسور في الجو وأوصلوا رسالة الإسلام إلى كل بقاع العالم: القائد الكبير عُقْبةُ بن نافع الفهري الذي كان نصيبه التوغل في قارة إفريقيا وفتحها. وقد تلاحقت انتصاراته التي ملأت قلوب المسلمين فرَحًا، غير أنه تعرض لمكيدة فعزله أمير ذلك العهد وسجن. كان أكثر ما يحزنه في سنوات سجنه التي بلغت خمس سنوات هو أنه حيل بينه وبين تبليغ الإسلام. كان يريد أن ينشر

الإسلام من أقصى إفريقيا إلى أقصاها. وعندما تولى الحكم يزيد بن معاوية قَدِم عُقبةُ على يزيد، فرَدَّه واليًا على المغرب سنة اثنتَين وستّين، فكُتبت بذلك حسنة كبيرة في صحيفة أعماله المملوءة بالآثام والسيئات. وعاود عقبة نشاطه في الفتوحات هناك. حتى بلغ شواطئ المحيط الأطلسي ودخل بجواده الشاطئ وقال: "يا ربّ! لولا هذا البحر لمضيتُ في البلاد مجاهدًا في سبيلك!"(٧٥) ولو أن شخصًا حدثه عن وجود قارة مثل أمريكا هناك لتساءل عن كيفية الوصول إليها لنشر الإسلام فيها.

أجل، كان المسلمون في تلك العهود يبلغون الإسلام لجميع الناس، ويحسون بتأنيب الضمير بالنسبة للبلدان التي لم يستطيعوا تبليغ دعوة الإسلام إليها. أما نحن فلم نستطع تمثيل الإسلام في أنفسنا ولا حمل الإسلام بسرعة البرق إلى أنحاء العالم، إذ لم نستطع ترك مشاغلنا وأعمالنا الخاصة ولا عدَّ العمل للإسلام الشاغلَ الأولَ لنا، وأعمالَنا الأخرى الشاغل الثاني والثالث والرابع. صحيح أننا ذهبنا لجلب المارك والدولار والشلن والفرنك. لم نذهب من أجل الله تعالى، لذا لم نستطع أن نُسمعهم الحقيقة السامية للإسلام. فإذا كانت تلك الشعوب لا تزال تعيش في ظلام الكفر والضلال فبسبب كسَلنا وعجزنا وفشَلنا نحن. فإن وُجّه إليهم سؤالٌ يوم القيامة فسيوجه إلينا أيضًا سؤال.

بالأمس شاهدتُ شريطًا لمحاضرة أُلقيت باللغة الألمانية، ومع أنني لا أعرف الألمانية إلا أن المنظر أمامي كان يقول ليَ الكثير. وكنت قبل مدة وجيزة في مقبرة في مدينة برلين... أحسست أنّ ركبتيّ لا تحملانني، قلت متضرعًا: "رحماك يا رب! لم نستطع أن نوصل اسمك الجليل إلى هنا..." والآن عندما شاهدت شريط الفيديو هذا غمرتني مشاعر جياشة...

(٧٥) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ١٠٦/٤.

المكان كنيسة في هولندا والمحاضر شاب مسلم، والقس جالس يستمع، والنساء الهولَنديات المسلمات المحجّبات جالسات يستمعن إليه ويسألنه بشوق وهو يجيب، ونساء لم يسلمن بعد يشاركن في السؤال. والحقيقة أنني عاجز عن وصف مشاعري، غير أنه يجب ألَّا ننسى أن كل هذه الأمور ليست إلَّا فعاليات تؤدَّى من قِبل هواة وهي لا تكفي أبدًا. هذه الجهود تعد خطوة في مضمار الخدمة الإسلامية، ولكنها ليست الخدمة ذاتها.

لا نزال نتجول في أروقة هذا القصر.. قصر الخدمة الإيمانية والإسلامية، ولا نستطيع الادّعاء بأننا فعلنا الشيء الكثير. وهذا هو السبب في أن الكثيرين لا يزالون يعيشون في الضلال. صحيح أننا ذهبنا إلى تلك الأقطار في سبيل الخدمة الإسلامية أيضًا، ولكننا لم نملك أنفسنا من الدخول في نزاعات عقيمة فيما بيننا. ولم نستطع أن نمثل الإسلام كما مثله السابقون من أمثال عمر بن الخطاب ﷺ وعقبة بن نافع وأبي عبيدة وأحنف بن قيس والمغيرة بن شعبة والقعقاع. فمن يدري كيف كانت قلوب الأعداء الذين شاهدوا مروءَة هؤلاء ورجولتهم وعدالتهم وإنسانيتهم وإيمانهم وعزمهم... كيف كانت قلوبهم ترتعش، وكم مرة مالت هذه القلوب إلى الإسلام عندما شاهدت هؤلاء الأبطال.

إذا نظرنا إلى هذا الموضوع من هذه الزاوية عند ذاك ننظر بنظرة متسامحة إلى الذين يعيشون في باريس ولندن ونيويورك. بل ربما ضربنا على صدورنا أسفًا لأننا لم نقم بواجب التبليغ -كما يجب- نحوهم. أريد أن أنقل هنا قصة واقعية سمعتها من الواعظ الشيخ "نجم الدين نور صَجان":

ذهب أحد مواطنينا إلى إحدى الدول الأوروبية للعمل فيها، وسكن في بيت وتعرف على صاحب البيت وعائلته. وكان كثيرًا ما يجلس ويتسامر معهم. وتوثقت بينه وبينهم الصداقة. ولم يكن صاحبنا هذا

يقصر في تمثيل الإسلام والحديث عنه والإجابة عن استفساراتهم عنه. وبعد مضيّ مدة أعلن صاحب البيت إسلامه. ولم تلبث زوجته أن أعلنت هي أيضًا إسلامها ونطقت بالشهادتين، ثم التحق الأبناء بهما، وخيمت السعادة على العائلة حتى انقلب البيت إلى دوحة من الجنة.

بعد مرور عدة أيام قال صاحب البيت لمرشده ما أدهشه: "أحيانًا أرغب أن أضمك إلى صدري وأشبعك تقبيلًا. ولكن أحيانًا أرغب أن أشبعك ضربًا، ذلك لأنك أتيت إلينا وأصبحت نزيلًا عندنا، وبوساطتك جاءنا الرسول ﷺ وجاء القرآن الكريم وجاء الإيمان بالله تعالى، وبفضلك جاء الإيمان وأصبح بيتنا دوحة من الجنة، ولكن كان لي أبٌ طيّب طاهر الروح والنفس. وقد مات قبل أن تأتينا بمدة قصيرة، فلماذا... لماذا لم تأتنا قبل وفاته؟".

وأنا أعتقد أن هذه الصرخة هي عقاب العالم المسيحي واليهودي للمسلمين. نحن لم نستطع أن نذهب إليهم بالإسلام، بل لم نستطع تمثيل الإسلام حتى في بلادنا، ولم نستطع أن نَحيا بالإسلام ولا قُمنا بشرحه ولا إيصاله إلى القلوب المحتاجة إليه.

واسمحوا لي بالتطرق إلى أمر آخر: فالذين أبعدونا عن الإسلام وعدونا بأنهم سيصلون بنا إلى حياة في مستوى المدنية الغربية. ولكن رغم مرور ١٥٠ عامًا على هذا الوعد لا نزال نتسول على أبواب الغرب ولم يحدث أيّ تغير ولم نتقدم خطوة واحدة، واستمر الغرب في نظره إلينا خُدّامًا عند عتَبة بابه.. خدام جاؤوا إليه من أجل دراهم معدودة. والآن أريد أن أسألكم:

"إن المسيحيين واليهود لا يسلمون ولا يُقبلون على مبادئكم السامية، فهل فكّرتم لحظة في السبب الكامن من وراء هذا الأمر؟ السبب بسيط

للغاية: لو جاءكم أحد بمبادئ وبرسالة سامية جدًّا، بل لو فتح السماء على مصراعيها وأراكم الطرق المؤدية إلى الجنة فهل تدخلون في دين هذا الشخص إن كان يعمل لدَيكم خادمًا ويقوم بأداء أحقر الأعمال في نظركم؟'' لا شك أنكم لن تكونوا تابعين لخادمكم، ولن تسيروا خلف من ترونه متسولًا عندكم.

إن العالم الإسلامي لم يلم شمله ولم يرجع إلى نفسه بعد، ولم يمثل الإسلام في حياته، ولا يزال متسولًا على أعتاب الغرب. لذا فطالما كان هذا العالم الإسلامي مغلوبًا المرة تلو الأخرى بالضربة القاضية، وطالما بقي أسيرًا ومتسولًا ومتمسكًا بأعتاب الغرب وخائفًا من الغرب ومرتجفًا منه؛ فلن يكون هناك أي احتمال لأن يعيرك الغرب سمعه أو يهتم بالرسالة التي تحملها. ولكن إن كنا في مستوى شخصية أسلافنا وعزتهم ومثّلنا الإسلام بما يليق به من رفعة وطرَقْنا أبواب الغرب بهذه الهوية فإنه سينصت إلينا وسيهتم بنا وسيَقبَلنا. لا أقول إنهم محقون في عدم الإصغاء إلى الذين يعملون عمالًا وخدمًا عندهم، ولكن قد يكونون معذورين في هذا. وأيًّا كان مسؤوليتهم في عدم القبول، فإن مسؤوليتنا نحن في عدم تمثيل الإسلام بالمستوى اللائق أكبر.

أرى أن ننظر إلى هذا الأمر من هذه الزاوية وأن نعلم أن المسؤولية مشتركة بيننا، ويجب أن تكون أحكامنا عادلة ومنصفة. ونحن بعيدون جدًّا عن عقلية الذين يصدرون أحكامًا غير متوازنة، ويرون أن جميع من يعيش في البلدان الأجنبية هم حطَب جهنم. كما نحن بعيدون جدًّا عن عقلية الذين يتوقعون أنهم ما إن يعرضوا الإسلام بشكل ناقص وغير لائق حتى يقبل عليهم الجميع من كل حدب وصوب.. فهذا خيال ووهم. ولكننا نؤمن بأنه سيكون هناك تغيّر في التوازن الدولي الحالي وأن الجيل القادم

في تركيا ومصر وبلدان تركستان وسائر البلاد الإسلامية سيعود إلى نفسه وإلى شخصيته وهويته الحقيقية، وسيعيش عقيدته ومبادئه، وسيأخذ هذا الجيلُ الطاهر والمضحِّي مكانه ضمن التوازن الدولي الجديد. عند ذاك سيُصغي الشرق والغرب إلينا.

ليس هذا مستحيلًا.. سيتحقق هذا بالتأكيد، بل لقد بدأ فعلًا بالتحقق.. فالمفكرون في الغرب الآن مذهولون من معجزة الإسلام وشبابه الدائم. ويبدو أن هذا سيكون سببًا في تغييرات كبيرة. وليس من المستبعد حدوث تغيرات اجتماعية كبيرة في المستقبل القريب. وستكون هناك تغيرات في خريطة العالم. ولكن لن يستطيع إنجاز هذا إلا الذين وجدوا أنفسهم وشخصيتهم وهويتهم الحقيقية، لا العاجزون والفاشلون الذين يؤجّلون العمل في هذا السبيل إلى أوقات فراغهم.

وكما قلت في مرة سابقة فالذين يرفعون هاماتهم من القبور ويطلون عليكم من بين أحجارها قائلين: ''أجل، هؤلاء هم المنتظَرون'' عند ذاك تكونون قد أدّيتم وظيفتكم في تمثيل الحق والحقيقة وتمّ الأمر وزهق الباطل وآن الأوان للتعبير عن أنفسكم أمام العالم.